

خطبة الجمعة - الخطبة ٤٥١ : خ ١ - مولد الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) : شخصيته ،
٢ - المثانة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٣-٠٩-٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كانا لنهدي لو لا أن هدانا الله ، وما توفيقي
ولا اعتصامي ولا توكلني إلا على الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً
بربوبيته وإرغاماً لمن جد به وكفر ، وأشهد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد
الخلق والبشر ، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا
محمد وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم ارحمنا فإنك
بنا راحم ، ولا تعذينا فإنك علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيءٍ
قدير ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ،
وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنها ، وأدخلنا
برحمتك في عبادك الصالحين .

اجتماع الكمالات كلها في شخصية النبي الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ نحن في شهر المولد ، والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقد ذكرت لكم في خطبة سابقة أن جوهر الاحتفال بعيد المولد هو معرفة الرسول عليه الصلاة
والسلام ، معرفة حقيقة رسالته ، معرفة حقيقة المنهج الذي جاء به ، معرفة حقيقة شمائله التي
اكتملت فيه ، فكانت نموذجاً إنسانياً أول ، فالحديث عن شمائله التي عليه الصلاة والسلام جزءٌ
من تعريف المؤمنين برسولهم الكريم ، الذي امتن الله عليهم به .

فقد تكاملت أيها الأخوة الشخصية الإنسانية في شمائله التي تنتسم بالزهد ، والتواضع ، والشجاعة ، والوفاء ، فكان
تكميل في إنسان ، وبرزت الرجولة التي تنتسم بالزهد ، والتواضع ، والشجاعة ، والوفاء ، فكان
عبدًا يقف بين يدي ربه حتى تورم قدماه ، وكان اجتماعياً يشارك الناس في سرائهم ، وفي
ضرائهم ، وفي سرورهم ، وفي أحزانهم ، وكان يعطف على من حوله إخوة و الزوجات وأولاداً
وإخواناً ، وكان عليه الصلاة والسلام مصلحاً اجتماعياً من الطراز الأول ، عُرف بضبط النفس
وقوة التأثير ، وكان فعلاً أكثر مما هو قوله ، وكان عليه الصلاة والسلام لم يستغفل في مكيدة ،
ولم ينم عن مهمة لحظةً قط من ليل ولا نهار ، وانتسم بالسياسة فكان مثلاً للكياسة والدهاء من
دون تكبرٍ أو طغيان ، عقد المعاهدات ، وبعث العواث ، وكان قائداً عُرف بالبطولة الحربية

وبالشجاعة ، فقاتل بيده ، وكان إذا اشتد بالناس البأسُ أقرب إلى العدو منهم ، ووصل إلى ذروة البلاغة في القول ، فكان محدثاً بارعاً .

الشيء الذي يلقي النظر في شمائل النبي أنها جمعت من كل أنواع العظمة ، من كل أنواع التفوق ، من كل أنواع الرُّقي ، الكلمات كلها اجتمعت في شخصية النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك كان قدوة لنا ، كان سيد الخلق ، وحبيب الحق ، هذه إطالة سريعة ، ونظرة شاملة ، ولكن إذا وقنا عند دقائق شمائله ، وتفاصيل حياته ، وأنماط سلوكه لأخذنا العجب العجاب .

النبي الكريم مثل أعلى لنا في الزهد والاكتفاء بالقليل :

النبي عليه الصلاة والسلام اتسم بالزهد في الدنيا ، وكان يكتفي بالقليل ، ولكنه ليس زهداً ناتجاً عن عجزٍ وقصير ، إنما زهد المالك فيما يملك ابتعاداً مرضاه الله ، النقطة الدقيقة أيها الأخوة هو أنه زهد في الدنيا ، واكتفى منها بالقليل لا عن عجزٍ ، ولا عن ضعفٍ ، ولا عن قصور ، ولكن ليكون مثلاً أعلى لمن بعده .

لأن الإنسان أيها الأخوة حينما تقل عليه حاجاته يضطرُّب ، لئلا يكون الإنسان ضحية نقص الحاجات ، ضحية نقص الطعام ، ضحية نقص الشراب ، لئلا ينسى مهمته الأولى من أجل حظوظ الدنيا ، لئلا تشغله حظوظ الدنيا عن مهمته الكُبرى ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام في زهده واكتفائه بالقليل مثلاً أعلى لمن بعده من المؤمنين ، لأن حقيقة الإيمان أن يعرف الإنسان رسالته التي حملَّها ربه ، حقيقة الإيمان أن يعرف أنه جاء إلى الدنيا لمهمةٍ خطيرة ، ليتعرف إلى الله عز وجل ، وليعمل بطاعته ، عندئذٍ يسعد في الدنيا والآخرة ، لئلا تكون الدنيا مُشاغبةً على هدفه ، لئلا تكون الدنيا صارفةً له عن رسالته ، لئلا يضطرُّب لأي نقصٍ في المطعم والمشرب والملابس والمبيت ، لئلا يقع ضحية نقص ماله أو نقص حظوظه ، كان النبي عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى في الزهد والاكتفاء بالقليل . كان يقول :

((مالي وللنِّيَا إِنَّمَا أَنَا وَالنِّيَا كَرَابٌ أَسْتَظِلُ بِظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ مُضِي وَتَرْكَهَا))

[الترمذى عن عبد الله بن عمر]

عرض زائل ، رحلة عابرة ، مرورٌ مؤقت ، دار انتقال لا دار قرار ، دار ترحٍ لا دار فرح ، "إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء " .

لئلا يفرح المؤمن للرخاء ، فينسى بهذا الرخاء طاعة ربِّه ، فينسى ساعة لقائه مع الله عز وجل ، لئلا يفرح المؤمن بالدنيا فينسى مهمته ، لئلا يكون المال حجاباً بينه وبين الحقائق الكُبرى كان عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى في الزهد والاكتفاء بالقليل ، كان يقول :

((مالي وللنِّيَا إِنَّمَا أَنَا وَالنِّيَا كَرَابٌ أَسْتَظِلُ بِظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ مُضِي وَتَرْكَهَا))

[الترمذى عن عبد الله بن عمر]

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت

* * *

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها ، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها ، أثر عنه صلى الله عليه وسلم - ونحن في تفاصيل حياته - أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبر الشعير .

قد يدخل أحدهنا على بعض الأفران الحديثة فيرى بها الأنواع المتنوعة من الخبز الشهي ،
المُصَفَّى، المُنْقَى ، الأبيض ، بأشكال ، وألوان ، وحجوم .

أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبر الشعير ، وكان يرضي بالكافف في المأكل ، والغليظ في الملبس ، وبينما على وسادة حُشِّيَت ليفاً ، وكان يقول :

((حسب المرء لقيمات يقمن صلبه))

[من الجامع لأحكام القرآن]

وكثيراً ما كان يبيت طاوياً صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما قضى وأهله الأيام ليس لهم طعام إلا الخبز والماء ، لماذا أورِد هذه التفاصيل ؟ لثلا يكون النقص في الطعام ، أو النقص في الشراب ، أو النقص في الملبس ، لثلا تكون بعض الحظوظ القليلة من الدنيا حجاباً بينك وبين الله ، لثلا يكون نقص الحظوظ في الدنيا صارفاً لك عن مهمتك الكبرى ، لتجعل من الدنيا تحت قدمك ولا تجعل من نفسك عبداً لهذه الدنيا الزائلة ، قالت السيدة عائشة لعروة : " إنما كنا ننظر الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما توقد في بيوتنا نارٌ ، فقال : يا خالة ما كان عيشكم ؟ قالت : التمر والماء " .

الدنيا زائلة لا تبقى لمخلوق جوهرها معرفة الله و طاعته :

الآن أيها الأخوة ؛ ما الذي يشعر الإنسان بالحرمان وبتفاهة الدنيا ؟ نقص حظوظه منها ، ما الذي يصرف الإنسان عن طاعة الله ؟ شعوره بالفقر ، ما الذي يجعل الإنسان يرتكب بعض المعاصي ؟ رغبته في المال ، رغبته في الرفاه ، رغبته بأن يجاري أقرانه الأغنياء ، هذه الرغبة في أن تجاري أقرانك ضيّعت من أجلها دينك ، هذه الرغبة من أن أجل أن تكون في مظهر لائق ، ضيّعت من أجلها آخرتك ، هذه الرغبة في الدنيا حجبتك عن ربك ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان من الممكّن أن يكوننبياً ملكاً ، وقد خيره جبريل عليه السلام ، قال : " يا محمد أتحب أن تكوننبياً ملكاً أننبياً عبداً ؟ قال :

((أكون عبداً أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فإذا جعت صبرت ، وإذا شبع شكرت))

[ورد في الأثر]

يا أيها الأخوة الكرام ؛ الدنيا زائلة لا تبقى لمخلوق ، جوهرها معرفة الله ، جوهرها طاعته ، جوهرها السعادة بقربه ، أما أن تكون الدنيا حجاباً ، أما أن يكون نصها يحمل الإنسان على السخط على ربه ، فهذه هي البليّة العظمى ، ليست المصيبة ألا تجد المال ، ولكن المصيبة أن ترى في نقص المال حجاباً بينك وبين الله .

تعظيم النبي عليه الصلاة و السلام النعمة مهما دقت :

أيها الأخوة الكرام ؛ أثیر عنه صلی الله عليه وسلم أنه ما أكل أكلتين في يوم واحد ، إلا كانت إدحاماً تمراً ، وما شبع من خبز ، وكان مع ذلك يُعظّم النعمة وإن دقت ولا يذم منها شيئاً . ما ذم طعاماً قط في كل حياته ، ما ذم طعاماً قط ، دعي إلى خبز وخل فقال عليه الصلاة والسلام :

(نعم الإدام الخل))

[الجامع لأحكام القرآن عن ابن حبيب]

وقال :

(لو دعيت إلى كراع لأجبت ...))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

كراع بظاهر المدينة ، لو دعي إلى دعوة متواضعة في مكان بعيد لأجب ، لأنه : من دعي فلم يجب فقد عصى أبا القاسم . ولا سيما إذا كان الداعي متواضعاً ، إذا كان الداعي رقيق الحال ، أراد أن يتشرف بك وأنت لا تجده ؟ ! تجيب دعوة الأغنياء !! وكان يقول عليه الصلاة والسلام :

((إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد))

[الجامع الصغير]

حياة النبي الكريم حياة توجيهية نموذجية :

أيها الأخوة الكرام ؛ لم تكن هذه الحياة حياة رسول الله حياة فردية ، أرادها أن تكون حياة توجيهية ، أرادها أن تكون حياة نموذجية ، فالحالات تختلف ، والأيام تمضي ، والدنيا تقبل أو تُدبِّر ، والدخل يزداد أو يقل ، المؤمن ثابت على مبدئه لا يتغيّر ، ولا يتحول ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

((اخشونوا وتمعددوا فإن النعم لا تدوم))

[كشف الخفاء عن عمر]

ما الذي يقلق الناس الآن ؟ نقص أرزاقهم ، لا يهتم لصوره في عبادته ، ولا لقصيره في معرفة ربها ، ولا لجهله الفاحش في كتاب الله ، ولا لارتكابه بعض المعاصي والآثام ، الذي يقلقه أن يقل رزقه فقط .

أيها الأخوة الكرام ؛ لئلا يكون الإنسان عبداً للدنيا ، من أجل أن يكون المسلم فوق الدنيا ، من أجل أن يطأ الدنيا بقدمه ، من أجل أن يضحك على الدنيا دون أن تضحك عليه الدنيا ، كان عليه الصلاة والسلام زاهداً مُكتفياً بالقليل ، أراد أن تكون حياته نموذجاً ، ليس معنى هذا أن نمنع أنفسنا الطبيات التي خلقها الله لنا ، ولكنني أقصد من هذا الكلام أنك إذا اجتهدت ، وسعيت وفق منهج الله عز وجل ، وسعيك انتهى بك إلى موقع دون طموحك ، لا ينبغي أن تحمل نفسك على معصية الله من أجل الدنيا ، أسوق هذا الكلام لا لتأكلوا خبز الشعير فقط ، ولا لتأكلوا وجبة واحدة في اليوم ، ولكن لئلا تحملوا أنفسكم على معصية الله من أجل الدنيا ، لئلا تحجبوا عن ربكم من أجل الدنيا ، لأن الله سبحانه وتعالى يمتحن المؤمنين بالسراء ، ويختبرهم بالضراء ، يمتحنهم بالغنى ، ويختبرهم بالفقر ، يمتحنهم بإقبال الدنيا عليهم، وبإدبار الدنيا عنهم .

كرم النبي صلى الله عليه وسلم وشدة سخائه :

علماء السيرة المطلدون لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام قالوا : إن هدف النبي عليه الصلاة والسلام من حياته المتقدّفة الخشنة الزاهدة التي كان ذات مظهرٍ بسيط أن يبني في الإنسان شخصيةً ترقى أمام الصعب ، لا تتأثر بالحرمان ، لا تحرف عن هدفها من أجل دنيا قليلة .

أيها الأخوة الكرام ؛ مع كل ذلك كان عليه الصلاة والسلام متميّزاً بالجود والسخاء ، كان له وادٍ من غنم ، جاءه رجل وكان سيد قومه . قال : لمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك . قال : أتهزأ بي ؟ قال : لا والله ، هو لك . قال : أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر . غالباً ما يكون الفقير في الدنيا حريصاً عليها ، يقبض يده ، هذا زُهد الأنبياء ؛ زُهد يرافقه سخاء ما بعده سخاء ، بذلٌ ما بعده بذل .

محاسبة النبي نفسه أشد المحاسبة حينما يأكل طعاماً طيباً :

وشيء آخر مع هذا الزهد ، وذلك التقشف ، ومع هذا السخاء ، كان يحاسب نفسه أشد المحاسبة حينما يأكل طعاماً طيباً ، فكان صلى الله عليه وسلم مرّةً مع صاحبه الصديق وسيدنا عمر رضي الله عنهما ، وقد أسلم لهم أبو هيثم التيهان الانصاري ، ذبح لهما شاة ، واستعدّ لهما ماء ، ثم أتى بذلك الطعام والماء ، فأكل منه النبي واصحابه وشربوا ، فقال عليه الصلاة والسلام :

(التساؤل عن النعيم نعيم هذا اليوم ...)

[الجامع لأحكام القرآن]

جمع بين هذه الصفات الثلاث ؛ بين زهده ، وبين سخائه ، وبين الشعور بالمسؤولية، إذا عاش الإنسان في رفاهٍ أو أكل أطيب الطعام . قد يأكل الإنسان أطيب الطعام ولا يشكر ربه ، أكل لحم شاة ، وشرب ماء عنباً ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((هذا هو النعيم الذي نسأل عنه يوم القيمة))

[الجامع لأحكام القرآن]

وكان طعامه فيما تروي كتب السيرة يوم عرسه بأم سلمة لا يزيد عن شيء من الشعير ، أخذته أم سلمة فعصفته ، هذا طعامه يوم عرسه بأم سلمة .
وروى أنس بن مالك :

((أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من رطب ، فجلس على ركبتيه فأخذ يناولني ، قبضة قبضة يُرسل بها إلى نسائه ، وأخذ قبضة منها فأكلها))

هكذا كان يعلمنا ، وكان عليها الصلاة والسلام يقول :

((أخفت في الله وما يخاف أحد ، وأوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت علي ثلاثة ما بين يومٍ وليلةٍ ما لي ولبلال طعامٍ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال))

[الجامع الصغير عن أنس]

كان عليه الصلاة والسلام يدخل بيته ليأكل ، فيقول :

((أعندكم شيء؟ يقولون : لا . فيقول : إني صائم))

[الجامع الصغير عن عائشة]

وهل في بيت المسلمين بيتٌ واحدٌ مهما كان مستوى الاقتصادي متدنياً ليس في البيت شيءٌ يؤكل؟! سيد الخلق ، وحبيب الحق كان قدوة لنا ، لماذا جعله الله قدوة لنا؟ لأنَّه أذاقه الفقر ، فكان مُتَجَمِلاً صابراً ، وأذاقه الغنى فكان سمحاً باذلاً ، وأذاقه الضعف والقهقهة في الطائف فكان عبداً لله عز وجل ، راضياً بقضائه ، وأذاقه النصر فكان متواضعاً لله عز وجل .

انصراف الدنيا ينبغي ألا يصرف الإنسان عن هدفه :

أما الشخصية المُنْعَمَة التي نشأت في النعيم فهذه تضطرُب لأقل نقص ، لو تعطل المُكَيَّف ، لفاقت الدنيا ولم تقدر لتعطل التكييف فقط أحياناً ، لو أن الطعام كان في مستوى أقل مما يرجو لصرخ ، وصخب ، وأقام الدنيا ولم يقعدها ، هذه الشخصية الغارقة في النعيم ، الغارقة في ملذات الحياة الدنيا ، الغارقة في أطيب الطعام ، الغارقة في حظوظ النفس ، هذه الشخصية لا تصمد أمام الزلازل ، لا تصمد أمام المحن ، هذه الشخصية هشة المقاومة ، سريعة الانهيار ، سريعة الاضطراب ، سريعة السقوط .

مبلغ من المال يغريها فتبعد بها عن ربها ، قد يبيع الإنسان من أجل المال دينه ، قد يبيع آخرته. القضية أنها الأخوة في سيرة النبي أعمق من أن تقول : إنه كان زاهداً ، أراد أن يبني شخصية المؤمنين على الزهد ، بمعنى أنك إذا انصرفت عنك الدنيا لا ينبغي أن تتصرف عن رسالتك ، إذا انصرفت عنك الدنيا لا ينبغي أن تزيح عن هدفك ، إذا انصرفت عنك الدنيا لا ينبغي أن تسخط

على ربك ، إنه الابتلاء والامتحان ، مثل هذه الشخصيات القوية الشامخة الصامدة التي لا تضطرب أمام نقص الطعام والشراب والملذات ، مثل هذه الشخصية أهل لتحمل رسالة السماء.

بيت النبي عليه الصلاة والسلام جزء من الدعوة :

أيها الأخوة الكرام ؛ جاء النبي عليه الصلاة والسلام ضيف ، فأرسل يسأل في بيوت زوجاته التسع ، فلم يجد عند إحداهم شيئاً يؤكل ، فوكل أمره إلى أصحابه ، وضاقت زوجاته بهذا الوضع ، وطلبن النفقه ، فنزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرْدِنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَىٰ إِنْ أَمْتَعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

[سورة الأحزاب: ٢٨]

لماذا ؟ لأن بيت النبي عليه الصلاة والسلام جزء من الدعوة ، لو أن النبي دعا الناس إلى الزهد والتواضع وخشونة العيش ، ودعاهم إلى معرفة الله وتخطي الصعب ، وكان هو في بيته متعماً ، غارقاً في النعيم ، ما صدق الناس دعوته ، لأن بيت النبي عليه الصلاة والسلام جزء لا يتجزأ من الدعوة إلى الله ، فمن دعا إلى الله فليضبط بيته ، لأنه إذا اكتشف الناس أن البيت ليس كما يدعوه سقطت الدعوة .

هناك سؤالان كبيران : إذا كانت هذه الدعوة حقاً ، لم لا تطبق في بيت الداعية ؟ وإن كانت غير واقعية صعبة التطبيق فلماذا يدعو إليها ؟ سؤالان ليس لهما جواب .

لذلك : يريد الله ليطهر أهل بيت النبي من أجل أن تكون القدوة كاملة في شخصه وفي أهله صلى الله عليه وسلم . ليس معنى هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام يحب الخشونة في طبعه ، يحب تحمل المشاق ، لا ، كان رقيق الحاشية صلى الله عليه وسلم ، والدليل أنه ما خير بين شئين إلا اختار أيسراها ، ما لم يكن إثماً . فهو نفس بشرية تمثل إلى الدعوة ، وإلى الراحة ، وإلى ما لذ من الطعام ، هكذا فطرة النفس ، ولو لا أن النبي عليه الصلاة والسلام تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر : " اللهم إني بشر " ، ولو لا أنه تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لذلك ما خيراً بين شئين قط إلا اختار أيسراهما ما لم يكن إثماً ، وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ويتفكه ولا يقول إلا حقاً .

تواضع النبي الكريم و لطفه الكبير :

وهناك شيء آخر في شخصيته صلى الله عليه وسلم : فأحياناً الإنسان إذا ارتفع مقامه قليلاً يرى في حمل بضاعته عاراً ، لابد من إنسان يمشي وراءه يحمل عنه بضاعته ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

((برئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[رواوه القضايى والديلمى عن جابر مرفوعاً وهو عند ابن لال عن أبي أمامة. وفي لفظ بضاعته بدل سلعته]

كان عليه الصلاة والسلام يذهب إلى السوق ، ويحمل بضاعته بيده ، وكان إذا تصدق وضع الصدقة في يد السائل ، وكان يركب دابةٍ ويردف خلفه . أما حينما يترفع الإنسان ويريد أن يكون له مظهر فخ مُفْخَم يرفعه عن عامة الناس فهذا ليس قدوةً ، ولا يقتدي بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فلا ينبغي أن يبني المؤمن شخصيته على تلقى الخدمات ، ينبغي أن يبنيها على إعطاء الخدمات ، لا ينبغي أن يبني المؤمن شخصيته على الأخذ بل على العطاء ، فكأن في شخصية المؤمن سمةً أساسية وهي البذل والعطاء .

وكان عليه الصلاة والسلام مع هذه النفس الوديعة الطيبة ، مع هذه النفس الزاهدة العابدة كان ينطّف مع الأطفال وكان يقول :

((من كان له صبي فليتصاب له))

[الجامع الصغير عن أبي معاوية]

وكان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً . وكان يقول :

((خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم))

[كنز العمال عن علي]

صبره عليه الصلاة و السلام على جفوة الغريب و تجاوزه عن المسيء :

أيها الأخوة الكرام ؛ كان عليه الصلاة والسلام يصبر على جفوة الغريب - الشخص الغريب الذي لا يعرفه ، قد يكون كلامه قاسياً ، قد لا يرعى حرمة النبي عليه الصلاة والسلام ، ربما لا يقف الموقف الأديب الذي يقفه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم- لكن النبي عليه الصلاة والسلام لصدره الواسع ورحمته الكبيرة ، كان يصبر على جفوة الغريب في منطقه ومسئنته ، وكان لا يواجه أحداً بما يكره من شدة حياته ، وشدة حرصه على أصحابه ، وعلى طيب خاطرهم ، لا يواجه أحداً بما يكره ، وكان يجيب دعوة الداعي ، ويعود المريض ، ويقبل العذر ، هناك أشخاصٌ لؤماءً مهما اعتذرت إليهم ، مهما استرضيتمهم ، لا يقبلون العذر أبداً ، ولا يرضون عن الخطأ . لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقبل عذر المعتذر ويتجاوز عن المسيء ، وله في كل حالةٍ من هذه الأحوال نماذج رائعة هي مضرِب المثل لأمتة من بعده .

جوده صلى الله عليه وسلم و حسن خلقه :

كان عليه الصلاة يعطي من منعة ، ويصل من قطعه ، ويبذل لمن حرمته ، وكان يغضي طرفه عن الأذى ، وكان أجود الناس بل كان أجود من الربيع المُرسَلة ، كان إذا أقبل إلى مجلسِ جلس حيث ينتهي به المجلس .

مرة دخلت عليه حليمة السعدية التي أرضعته ، فكان عليه الصلاة والسلام وفيما لها أشد الوفاء ، بسط إليها رداءه لتجلس عليه ، وكان إذا زاره ضيف يعطيه وسادة - ليس في البيت وسادة أخرى إطلاقاً - وكان عليه الصلاة والسلام يجلس على الأرض تكريماً للضيوف .

لم يعرف في أخلاقه مهانة ولا جفاء ، بل الدماثة واليسير ، جُلَّ على حُسن الخلق ، بالرياضة النفسية ، وبالبهبة الإلهية ، كان يحب شاته ، ويخصف نعله ، وكان يحب التيمّن في كل شيء ؛ في طهوره ، وترجّله ، وتنقّله .

دخل عليه رجل فأصابته رعدة :

((أتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَكَلَمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصَهُ، فَقَالَ لَهُ : هَوْنَ عَلَيْكَ ، فَإِنَّمَا لَسْتُ بِمُلَكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عن أبي مسعود]

عُرِفَ عليه الصلاة والسلام بالتفكر ، فقد كان طيب النفس ، رفيق المعاشر ، يألف ويؤلف ، لم يكن جهماً يحمل حاجاته ، وكان الناس في وقتها يظنون حمل البضاعة عورة ، أي عيبة ، حينما كان عليه الصلاة والسلام يحمل حاجاته بيده ، كان الناس يرون أن حمل البضاعة عورة أي عيبة تسبب لصاحبيها النقص .

وكان عليه الصلاة والسلام ذا قلب رقيق يفيض بالرحمة ، فكان يبكي لموت الأطفال ويقول:

((إنما هي رحمةٌ يضعها الله في قلب من يشاء من عباده ...))

[البخاري عن سعد]

وكان يكره التميز والترفع عن أصحابه وعن أتباعه ، لو دخل غريب إلى مجلسه لا يعرفه ، يقول : أياكم محمد ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام : " قد أصبت " ، أي أنا .
لماذا لم يعرفه الداخل ؟ لأنَّه ما كان متميزاً على أصحابه أبداً .

السيدة خديجة بفطرتها الصافية ، حينما جاءه الوحي قالت له : " والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب المدعوم ، وتقرئ الضيف ، وتعين على نواب الحق ".
هذه الكلمة فيها استنباط دقيق ؛ هذه الفطرة السليمة من دون تعليم ، من دون وحيٍ من السماء ، الإنسان الأخلاقي ، الوفي ، الصادق ، الأمين ، الذي يعين الآخرين ، قلبه ممتلىء رحمةً لهم ، هذا لن يخزيه الله أبداً .

هذه الفطرة ، من دون تعقيدات ، الإنسان إذا كان محسناً ، وقد قصد بإحسانه إرضاء الله عز وجل ، فهذا الذي يفلح وينجح في الدنيا ، ولن يخزيه الله في الدنيا أبداً .

غضبه صلى الله عليه وسلم للدعوة ولربه فقط :

النبي عليه الصلاة والسلام لم يغضب إلا للحق ، ما غضب لنفسه ولا مرة ، ولا انتصر لها ، وهو في غضبه للحق يملك تعبيره ، فلا ينفلت الكلام منه إطلاقاً ، أحياناً أشخاص لو أن غضبه

للحق ، ينفلت الكلام منه فيجرح ويؤذى ، ويحدث من الشر أضعاف ما أراد أن يصلح ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام لم يغضب لنفسه فقط ، ولم ينتصر لها ، وحينما يغضب الله كان لسانه منضبطاً ، فلم تكن العبارة تتفاوت منه ، بل كانت في مكانتها .

وكان غضبه صلى الله عليه وسلم يتصل بالدعوة ولا يتصل بشخصه ، جاءه أعرابي ، قال : " يا محمد اقض حقي فأنتم معاشربني عبد المطلب قومٌ مُطلٌّ " ، جرأة ما بعدها جرأة ، وفاحفة ما بعدها وفاحفة ، يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ، ما غضب النبي لنفسه .

أعرابي جذبه في ثوبه النجراني حتى أثر في عنقه الشريف ، جذبه جذبة ، فنظر له النبي وابتسم ، إذاً ما غضب النبي لنفسه .

أعرابي آخر سأله النبي حاجة فأعطاه إياها قال : يا أعرابي هل أحسنت إليك ؟ قال : لا ولا أجملت . فما زال عليه الصلاة والسلام يسترضيه حتى رضي ، إذاً ما غضب النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه أبداً ، أما إذا غضب فغضبه للدعوة ، غضبه الله عز وجل .

كان عليه الصلاة والسلام يتوضأ ليزول غضبه ، ويجلس إذا كان قائماً ، ويقوم إذا كان قاعداً ، مر في طريقه إلى فتح مكة بكلبة تهر على أولادها وهن من حولها يسترضعنها ، فأمر أحد أصحابه أن يقوم بجانبها حتى يمر الجيش كله لئلا يؤذيها أحد ، كلبة تهر على أولادها وأولادها يسترضعنها ، فأمر صاحبياً وهو في معركة ، وهو في طريقه لفتح مكة ، أمر صاحبياً أن يقف جانب الكلبة ليحميها من أن جندياً دون أن يعلم يصيبيها بالأذى .

ذات مرة بكى موت إبراهيم رضي الله عنه - ابنه - فقال :

((... إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمُعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزُنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ))

[منتق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

كان عليه الصلاة والسلام إذا قدمت له فاكهة في بوакيرها ، أي أول ما يأكل فاكهة ، كان عليه الصلاة والسلام يقبلها ، ويضعها بين عينيه ، ويقدمها لأصغر طفل في المجلس . هكذا كان إذا قدمت له الفاكهة في بوакيرها .

ثقة النبي المطلقة بربه :

كان عليه الصلاة والسلام لا يزعجه الأمر الجلل مهما يكن الخبر كبيراً ، لا يزعجه لماذا ؟ لقتنه بربه ، لقتنه بأن الله سينصره ، ليت المؤمن يثق بالقرآن الكريم ، بنصوص القرآن الكريم المطمئنة ، هذه النصوص ينبغي أن تتلخص صدره ، خالق الكون يقول :

﴿ مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[سورة النحل : ٩٧]

وتخشى أنت الفقر ! وتخشى المرض ! وتخشى مصائب الدنيا ! وتخشى نقلبات الدهر ! هذه الآية الكريمة لست مصدقاً إياها ؟ ! .

أيها الأخوة الكرام ؛ نقطة دقيقة جداً ، كان لا يزعجه الأمر الجلل لثقته بربه . فجندى يأخذ كتاباً من قائد الجيش يطمئنه ، ويثنى عليه ، ويكافئه ، ويأتي عريف صغير فيهدده فيبكي . هذا الكتاب لا قيمة له عندك ، هذا تفكير محدود ، الذي يستقيم على أمر الله ، ويؤمن بالله ، والله سبحانه وتعالى وعده بالنصر والتأييد والحفظ والرعاية ، ثم يخشى نوائب الدهر ومفاجآت الأيام ؟ هذا إدراكه للقرآن الكريم ليس كما ينبغي .

نظافته صلى الله عليه وسلم وجمال ملمسه وسعيه لطلب الرزق :

وكان عليه الصلاة والسلام نظيفاً ، جميل الملبس ، لا يرى إلا في أكم مظهر ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

((إن الله يحب من أحكم إذا خرج لإخوانه أن يتجمل لهم))

وكان بعض الصحابة يعرف خروج النبي من ريحه الطيب ، فكان يحب العطر .

ويقول أنس بن مالك : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وشممت العطر كله ، فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله ، ولا رأيت شيئاً أحسن من النبي ، ولا رأيت أحداً أسرع في مشيته من النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الأرض تطوى له ، وإنما لجهد في السير وراءه .

وفوق كل هذا جاهد عليه الصلاة والسلام في سبيل رزقه ؛ برعي الغنم تارةً ، والتجارة الداخلية تارةً ، والتجارة الخارجية تارة أخرى ، وكان شريكاً مُشارباً بمال السيدة خديجة ، هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام ، هذه بعض جوانب شخصيته .

يا أيها الأخوة الكرام ؛ مرة ثانية : جوهر الاحتفال بعيد المولد لا أن نردد أطيب الأقوال ، ونأكل ما لذّ وطاب من الطعام ، جوهر الاحتفال بعيد المولد أن نتعرف إلى شمائله صلى الله عليه وسلم ، وأن نقتدي بهديه .

أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخاذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولـي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدـه ورسولـه ، صاحـبـ الخـلقـ العـظـيمـ ، اللـهمـ صـلـ وـبـارـكـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ أـجـمـعـينـ .

المثانة :

لَيْهَا الْأَخْوَةُ الْكَرَامُ ؛ قَضِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ تَلْفُتَ النَّظَرَ هِيَ أَنَّ المَثَانَةَ كَالْبَالُونِ تَعْلَمُ تَعْلِمًا ، إِفْرَاغُ المَثَانَةِ مِنْ دُونِ عَضْلَاتٍ تَعْصِرُهَا يَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ طَوِيلٍ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَهْوِيَّةٍ مِنْ أَعْلَاهَا ، كَيْ يَنْشَأْ ضَغْطٌ يَضْغِطُ السَّائِلَ إِلَى الْأَسْفَلِ ، أَمَّا أَنْ تُجَهَّزْ الْمَثَانَةُ بِعَضْلَاتٍ تَعْصِرُهَا فَتَفَرَّغُ مَا بِهَا فِي أَقْلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَا نَعْرِفُهَا إِلَّا إِذَا فَقَدَنَاها .

أَوْلَأَ : قِيمَةُ الْوَقْتِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، إِنَّ إِفْرَاغَ الْمَثَانَةِ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْعَضْلَاتِ الَّتِي تَعْصِرُهَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَ دَقَائِقَ ، هَذَا عَمَلٌ يُومِيٌّ ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، زَوَّدَ هَذِهِ الْمَثَانَةَ بِعَضْلَاتٍ عَاصِرَةٍ ، فَإِنْسَانٌ إِذَا أَرَادَ إِفْرَاغَ مَثَانَتِهِ مَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُنْهِيَ ذَلِكَ عَلَى عَجْلٍ بِسَبَبِ هَذِهِ الْعَضْلَاتِ الَّتِي تَعْصِرُهَا .

قِيمَةُ الْوَقْتِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ :

ذَكَرْتُ هَذَا حِينَمَا قَرأتَ كَلْمَةً عَنْ بَعْضِ الْحَوَاسِبِ ، أَنَّ كُلَّ جِيلٍ يَمْتَازُ عَلَى الْجِيلِ السَّابِقِ بِالسَّرْعَةِ فَقُطُّ ، فَهَذَا الْحَاسِبُ مِنَ الْجِيلِ السَّادِسِ مِيزَتُهُ أَنَّهُ يَقْرَأُ ثَمَانِيَّةَ مَلِيَّنَ حَرْفٍ فِي الدِّقِيقَةِ ، وَالْجِيلُ السَّابِعُ مِئَةُ مَلِيُّونٍ ، وَهَذَا ، فَقِيمَةُ الْوَقْتِ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْأَلَ الْحَاسِبَ سُؤَالًا ، وَقَالَ لَكَ : انتَظِرْ خَمْسَ دَقَائِقَ ، فَهَذَا مِنَ الْجِيلِ الثَّالِثِ ، أَمَّا إِذَا أَعْطَاكَ الْجَوابُ فِي سَبْعِ ثَوَانٍ فَهَذَا حَاسِبٌ رَاقٌ ، قِيمَةُ الْحَاسِبِ فِي السَّرْعَةِ ، إِذَا الْوَقْتُ حِينَمَا يَخْتَصِرُ إِذَا هُوَ ثَمَنٌ جَدًا .

كَنْتُ فِي حَفْلَةٍ قَبْلَ أَيَّامٍ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : إِنَّ أَثْمَنَ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ هُوَ الْمَالُ . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ أَثْمَنَ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ هُوَ الْوَقْتُ ، لَأَنَّ الْإِنْسَانَ وَقْتٌ ، فَإِذَا عَرَفَ كِيفَ يُسْتَخْدِمُ هَذَا الْوَقْتُ ، فِي مَعْرِفَةِ رَبِّهِ ، وَفِي مَعْرِفَةِ مَنْهَجِ رَبِّهِ ، وَفِي السَّيِّرِ عَلَى مَنْهَجِ رَبِّهِ ، يَكُونُ قَدْ سَعَدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ إِلَيْ زَوَالٍ ، وَسُوفَ يَغَدِرُ الدُّنْيَا بِقُمَاشٍ أَبْيَضٍ مِنْ أَرْخَصِ أَنْوَاعِ الْأَقْمَشَةِ ، أَمَّا الْوَقْتُ فَهُوَ وَعَاءُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَمَنْ هُوَ الشَّقِيقُ ؟ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ الْوَقْتَ اسْتَهْلِكًا مِنْ دُونِ جُدْوٍ ، لَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِيقَةِ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْرِ﴾

[سورة العصر: ١-٣]

الدُّعَاءُ :

اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتُ ، وَعَافَنَا فِيمَنْ عَافَتِ ، وَتَوَلَّنَا فِيمَنْ تَوَلَّتِ ، وَبَارَكْ لَنَا فِيمَا أَعْطَيْتُ ، وَقَنَا وَاصْرَفْ عَنَا شَرَّ مَا قَضَيْتُ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي بِالْحَقِيقَةِ وَلَا يُقْضِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذَلُّ مِنْ وَالْيَتِ ، وَلَا يَعْزُزُ مِنْ عَادِيتِ ، تَبَارَكَتْ رَبُّنَا وَتَعَالَيْتُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا قَضَيْتُ ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ

، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك . اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعدنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحبتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادنا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين . اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودنيانا التي فيها معاشرنا ، وأصلاح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زادنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين . اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتكم عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك . اللهم لا تؤمنا مكرك ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تتسبنا ذكرك يا رب العالمين . اللهم استر عوراتنا ، وآمن رواعتنا ، وآمنا في أوطنانا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخيماً وسائل بلاد المسلمين . اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، نعوذ بك من عضال الداء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء . اللهم ما رزقتنا مما نحب فاجعله علينا فيما تحب ، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغاً لنا فيما تحب . اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإفتار ، فنسألك شرّ خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وندم من منع ، وأنت من فوقهم ولهم العطاء ، وبيده خزائن الأرض والسماء . اللهم كما أفررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك يا رب العالمين . اللهم بفضلك وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيدهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قادر ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين